طبية الخطاب الفلسفي

د. فاطمة الزهراء أمغار
جامعة الجزائر (2)

تاريخ الإرسال:2019/12/30 تاريخ القبول:2019/3/18
تاريخ النشر: 2019/06/30

ملخص:
يتناول البحث الخطاب كبنية فكرية تلجأ إلى اللغة باعتبارها أداة تعبير تشترك فيها كثيرا من الدراسات سواء كانت علمية أو إبداعية، متسائلين عن مجال تمفصل أنواع الخطابات ببعضها خصوصا الخطاب الأدبي بالفلسفي.
الكلمات المفتاحية: الخطاب، اللغة، العلمي، الإبداعي..

Abstract :
The research deals with the discourse as an intellectual structure that uses language as a tool of expression in which many studies are involved, whether scientific or creative, asking about the field of different types of discourse, especially the literary discourse in philosophy**.**
Key words : language, discourse, scientific, creative..

مقدمة:
يعد مصطلح الخطاب من المصطلحات الحديثة التي ولجت عالم الدراسات النقدية والتي تزال تحتاج إلى تسليط الضوء عليها للكشف عن دلالتها واستعمالاتها المختلفة. وكان اعتماد المصطلح في الفكر العربي نتيجة لاحتكاكه بالتيارات الغربية ورغبة منه في مواكبة التغيرات المستحدثة على الساحة الفكرية بالخصوص النقدية. فنجد المصطلح يحتل موقعا محوريا في جميع الأبحاث والدراسات التي تندرج ضمن تحليل النصوص كاللسانيات والفلسفة والأدب، خصوصا حين يكون تناول اللغة من جانبها التواصلي بحيث يجعل أساسه الخطاب وهدفه تحليله. أصبح الخطاب بهذا الاهتمام يمثل فضاء معرفيا متعدد الأبعاد يجعل كل باحث يعرفه من وجهة نظره الخاصة التي ترتبط بالخصوصية المعرفية التي ينتمي إليها. مما يجعلنا نتساءل عن مفهومه؟ وعن مميزات وخصوصيات الخطاب الفلسفي؟

عرض:
مفهوم الخطاب بين اللغة والاصطلاح:
إن المطلع على الدراسات المختلفة يؤكد على أن مفهوم الخطاب غير متفق عليه لتعدد الموضوعات التي يطرحها، وارتباطها بحقول معرفية متباينة مما يجعلنا نقبل على محاولة البحث عن جذوره سواء في المعاجم العربية أو الدراسات الغربية.
لغة: يحمل مصطلح الخطاب من حيث دلالات اللغة مفاهيم تكاد تصب في مجرى واحد، يقول صاحب معجم الوسيط(خاطبه) مخاطبة، وخطابا: كالمه وحادثه، وخاطبه: وجه إليه كلاما، الخطاب يعنى الكلام(1)
ورد مصطلح الخطاب في القرآن الكريم: "فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب". سورة ص آية23. وفي قوله تعالى: "وشددنا ملكه و آتيناه الحكمة وفصل الخطاب "سورة ص 20. وفي سورة النبآية37 يقول

تعالى"رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا". إن التفاسير التي وضعها القدماء والمحدثون لهذه الآيات القرآنية وبخصوص مصطلح الخطاب تحيل كلها على الكلام.
إن الخطاب لغة من خطب فلان إلى فلان، فخطبه أو أخطبه أي أحابه والخطاب والمخاطبة، مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما متخاطبان، والخطب: سبب الأمر،فيقال ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ وهو الحال والشأن:" قال فما خطبكم أيها المرسلون" الحجر57، بمعنى الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب، وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه.(2) وفي لسان العرب الخطاب من الخطب: الشأن أو الأمر صغر أو عظم.
فالخطاب هو مراجعة الكلام، وهو الكلام والرسالة وهو المواجهة بالكلام أو ما يخاطب به الرجل صاحبه ونقيضه الجواب وهو مقطع كلامي يحمل معلومات يريد المرسل (المتكلم/ الكاتب) أن ينقلها إلى المرسل إليه (السامع/القارئ)، يكتب الأول رسالة ويفهمها الآخر بناء على نظام لغوي مشترك بينهما. هذه المفاهيم تتدخل في بنائها عناصر متعددة كالمرسل و المتلقي والرسالة التي تحيلنا إلى مبدأ الحوار الذي يجمع بينها.
يقابل مصطلح الخطاب مصطلح ,Discours باللغة الفرنسية، فنجد المعاجم الغربية المتخصصة تقدم مجموعة من التقابلات والتحديدات منها الكلام، المحاضرة التي تلقى على مستمعين، كما تجمع ين النص والكلام من جهة والخطاب واللغة من جهة أخرى،كما تقابل بينها أحيانا أخرى.(3) والملاحظ تقارب الدلالات لمصطلح الخطاب في المعاجم الغربية والعربية على اعتبار أنها القول أو الكلام.

اصطلاحا:

لقد تعددت المفاهيم الخاصة بالخطاب عند الباحثين والنقاد الغربيين باختلاف تخصصاتهم وتعدد المدارس والاتجاهات الفكرية، فالخطاب عند إميل بنفنيست Benveniste Emile(1902-1976) هو كل تلفظ يفترض متحدثا وسامعا تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال ومن ثمة فهو يميز بين نظامين من التلفظ هما الخطاب والحكاية التاريخية. فالخطاب قوامه جملة الخطابات الشفوية المتنوعة وجملة الكتابات التي تنقل خطابات شفوية أو تستعير طبيعتها.وتختلف عن الحكايات التاريخية في مستويين اثنين الزمن وصيغ الضمائر. فالخطاب يوظف كل الأزمنة في حين الحكاية التاريخية لا يكون فيها إلاّ الزمن الماضي. كذلك يتعامل الخطاب مع كل صيغ الضمائر بينما في الحكاية التاريخية يقتصر على توظيف الضمائر على الصيغة الغائبة، وإن كان مفهوم الخطاب يمكن أن يتسع عند بنفنيست ليشمل كل الأجناس الأدبية التي يخاطب فيها شخص شخصا آخرا ويعلن عن ذاته باعتباره متكلما فتنطبق عليه حينها مقولة سقراط" تكلم حتى أراك."(4)
تقابل المدرسة الفرنسية الخطاب بمفهوم النص أو المقول بحيث تنظر إلى النص على أنه بناء لغوي يجعل منه مقولا أما البحث في شروط وظروف إنتاجه تجعل منه خطابا. فبالرجوع إلى الاشتقاق اللغوي لكلمة نص، والذي يلجأ إليه كثير من الباحثين لتعريف النص، لا يكفي لرفع تداخل هذا المفهوم بمفاهيم الخطاب. فإذا كان النص texte يعني في الأصل اللاتيني textus "النسيج" فالنسج لا يفيد سوى الترابط والانسجام والتسلسل. وإذا كانت هذه، حقا، بعض خصائص النص فإنها أيضا سمات للخطاب كذلك. فكلمة "نسيج" تجمع النص بباقي المفاهيم المقاربة ولا تمنعه عنها.(5)

من المفكرين الذين قاربوا بين مفهوم النص ومفهوم الخطاب بول يكور P.Ricoeur (1913-2005) حيث يعرف في كتابه :" du texte à l’action" بول ريكور النص قائلا: " النص هو كل خطاب مثبت بواسطة الكتابة". وفي تحليله لهذا التعريف يبين ريكور أن التثبيت بواسطة الكتابة يعد مكونا أساسيا من مكونات النص دون أن يعني ذلك، بطبيعة الحال، أن النص يختزل في مجرد الغرافيزم graphisme ومع ذلك يمكن القول بأن الكتابة تحتل عند ريكور مركز شبكة معايير النصية(6). فالكتابة هي التي تميز في نهاية الأمر بين النص والكلام الشفهي كما بين النص والخطاب: إن التقابل بين هذين الأخيرين كالتقابل بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة. إن النص خطاب من حيث كونه تحقيقا للغة وكونه مبينا إلا أنه خطاب كان بالإمكان قوله ولكننا لا نقوله، بالذات، لأننا نكتبه. فالكتابة هي

التي تشكل تحقيق اللغة في النص وهو تحقيق مواز للكلام إذ يحل محله. فما نسجله بواسطة الكتابة ليس هو الكلام وإنما قصد الكلام ونية القول.

إن عنصر الكتابة يجعلنا، إذن، أمام وضع جديد عندما نكون بصدد النص. ولا يمكن اعتباره حالة خاصة من حالات الكلام الشفهي: فالنص- بما أنه مكتوب- يستدعي قارئا لا مستمعا، والعلاقة بين الكاتب والقارئ ليست هي ذات العلاقة بين المتكلم والمستمع ما دام عنصر المباشرة في الاتصال يسقط في الحالة الأولى، فبين كاتب النص وقارئه لا توجد علاقة تخاطبية ولا حوارية، إنها من طبيعة مخالفة لأن القارئ يكون غائبا أثناء الكتابة كما يكون الكاتب غائبا أثناء القراءة، ثم إن تحرر النص تجاه الشفوية – فضلا عن كونه يجعله محفوظا – يؤدي إلى قلب كثير من العلاقات، كعلاقة اللغة بالعالم، وعلاقتها بمختلف الذاتيات المعنية بالنص، ففي الكلام الشفهي يحضر المتكلمان معا في نفس المقام والوسط الظرفي مما يوفر لهما مرجعا مشتركا ويمكنهما بالتالي من استخدام الأدوات الإشارية (أسماء الإشارة، ظروف المكان و الزمان...) أما في النص فإن حركة المرجعية باتجاه الإظهار و التبيين يتم اعتراض سبيلها تماما كما يتم حصر الحوار، هكذا يظهر النص كما لو كان بدون عالم. وموازاة مع هذه الإزاحة لعالم النص، يدخل هذا الأخير في علاقة مع كل النصوص التي تمثل مكان الواقع الظرفين فكان العالم يحتجب خلف عالم النصوص.(7)

يترتب عن قلب العلاقة بين النص و عالمه قلب لعلاقته بمختلف الذاتيات المعنية به أي: ذاتية الكاتب وذاتية القارئ، فالكاتب لا يعود أقرب إلى نصه كقرب المتكلم من كلامه. ففي مستوى النص لا يوجد متكلم بالمعنى الدقيق، أي ليس هناك تعين ذاتي مباشر وسريع، فالمؤلف إنما هو مبدأ تشكل النص وهو يموت بمجرد كتابته لنصه حيث ينفصل هذا الأخير عن قصد صاحبه ليدخل في علاقة حميمة مع قارئه. القراءة هي التي تعطي النص دلالته كما تحقق له مرجعيته أي عالمه، وذلك عندما يصبح النص وساطة médiation بين القارئ وذاته، فالقارئ يفهم ذاته أو يجدد فهمه لها بواسطة النص.

ويعرفه اللغوي الأمريكي زليغ هاريس Harris Zellig(1909-1992) بأنه ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تتكون من مجموعة متعلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض(8). بمعنى أن هاريس ينظر إلى الخطاب بنفس التصورات والأدوات التي تحلل بها الجملة .فالخطاب وحدة لسانية تتألف من سلسلة من الجمل.

اهتم هاريس بالعلاقات التوزيعية بين الجمل، وتخطى الدراسات التي جعلت الجملة وحدة تحليل النص، فلم تتجاوزها إلى العلاقات التي تربط بين الجمل، ولا تهتم كذلك بعلاقة اللغة بالموقف الخارجي أو ظروف إنتاج النصوص. فحاول تطبيق تصوره التوزيعي على الخطاب بحيث تصبح كل العناصر تعبيرا عن انتظام معين يكشف عن بنية للجملة، مقاربا تعريف بلومفيلد "بأنها أكبر وحدة قابلة للوصف النحوي تأكيد على وجود الخطاب رهينا بنظام متتالية من الجمل.

ربط البعض مفهوم الخطاب خصوصا في البحوث النقدية الغربية بفعل النطق أو الفاعلية حيث الفاعلية تقول، وتصوغ في نظام ما يريد قوله، فهي فاعلية يمارسها المخاطب يعيش في مكان وزمان تاريخي تسود فيه العلاقات الاجتماعية بين الناس حيث أن الخطاب هو كل لغة متجلية في صورة تواصلية أو اجتماعية أو هو لغة التفاعل بين أفراد المجتمع الذين يتواصلون باللغة ليشكل دلائل لغوية منتجة في صورة شخصية من قبل متكلم، مزودة بغرض تواصلي خاص ووظيفة ثقافية محددة. كما يشير مصطلح الخطاب إلى نظام فكري يتضمن منظومة من المفاهيم والمقولات النظرية حول جانب معين من الواقع الاجتماعي بغية تملكه معرفيا، ومن ثمة يفهم منطقه الداخلي وذلك عن طريق عملية فكرية محددة تنظم بناء المفاهيم والمقولات بشكل الإستدلال بحكم ضرورة المنطقية التي تصاحب عملية إنتاج المفاهيم.

وظائف الخطاب:

إذا اعتبر الخطاب رسالة يبثها المخاطب(المبدع)إلى المتلقي(المخاطب)عن طريق قناة الاتصال إلا أن الرسالة اللغوية لا تتحقق إلا من خلال تحليل الوظائف الست التي تتحكم في عملية التخاطب كما حددها رومان جاكوبسونJacobson. R. وهي: الوظيفة الانفعالية: وظيفة لغوية تظهر جلية في الرسالة التي

تتكيف فيها اللغة لتتخذ من المرسل مرتكزا بشكل مباشر من دون سواه مشيرة إلى موقفه مما يتحدث عنه،فتقدم انطباعا عن انفعال معين صادق أو خادع.

الوظيفة الإفهامية: تتولد بالتركيز على الرسل إليه،وتسعى إلى إثارة انتباه، هو تحديد العلاقات بين الرسالة والمرسل إليه للحصول على ردة فعل.

الوظيفة المرجعية تتوجه هذه الوظيفة نحو المرجع المشترك بين طرفي التواصل الأساسيين ذلك لأننا نتكلم بهدف الإشارة إلى محتوى معين نرغب بإيصاله للآخر ونتبادل الآراء حوله. وتتعدد هذه المرجعيات فقد تكون أدبية فلسفية،اجتماعية وثقافية.

الوظيفة الإنتباهية: تظهر هذه الوظيفة في الرسائل التي ترغب في إقامة الاتصال وتمديده والحفاظ عليه للتأكد من أن المرسل إليه ما زال صاغيا ومقبلا على التواصل وتتمثل في أشكال الاتصال المتجسدة في المجتمع من طقوس وأعياد واحتفالات الخ...

الوظيفة ما وراء اللغوية: يميز المناطقة المعاصرون بين مستويين أساسيين للغة هما: اللغة المتحدثة عن الأشياء واللغة الواصفة، أي المتحدثة عن نفسها وهي اللغة الشارحة. لا يستخدمها المناطقة و اللسانيين بل هي ضرورية حتى في اللغة اليومية.

الوظيفة الشعرية: في هذا المستوى تكف اللغة عن أن تكون أداة اتصال بل تهتم بالرسالة وذاتها فهي وظيفة جمالية بامتياز إذ تعتني بالبناء المنطقي والأسلوبي لإخراج الكلام في أحسن صورة.(9)

الخطاب والخطاب الفلسفي:

يقوم الخطاب ـ أي خطاب، على أسس منها الفكرة والمضمون، واللفظ والأسلوب، والعاطفة، والخيال، ويحدد مدى ارتكازه على هذا العنصر أو ذاك كونه علميًّا خالصًا يخاطب العقل والمنطق أو كونه إبداعيًّا خالصًا يعمد إلى هز العواطف والأحاسيس وإثارة الوجدان، أو كونه علميًّا أدبيًّا يعمد إلى عرض القواعد والأصول العلمية فى لغة أدبية راقية، وهذه الطريقة من الأداء تحتاج إلى تمكن من العلم والأدب واللغة معًا وإلى دربة وخبرة ورياضة وتمرس، وقد يكون علميًّا خالصًا يعتمد على المنطق وسرد الحقائق بعيدًا عن الخيال اللغوي.

على أن نوع الخطاب إنما يتحدد وفق طبيعة الموضوع والمادة الفكرية، وقد يتحدد تبعًا لهدف ونية ورغبة وتوجه المتحدث، لذلك يجد المهتمين بتصنيف أجناسه صعوبة بحيث قد تتداخل الأجناس ببعضها البعض ورغم ذلك نستثني في التمييز الخطاب القرآني إذ يصنف على هذه الأجناس مرتبة فـالخطاب القرآني باعتباره خطابا ربانيا تعددت أوجهه بحسب المخاطب كما أنه معصوم عن الخطأ وغير قابل للترجمة إذ تترجم معانيه وتشرح مفرداته وأعظم مظهر فيه الجانب الجمالي الذي منه ما يرجع إلى اللفظ ومنه ما يرجع إلى الجملة ومنه ما يرجع إلى الفصاحة منه ما يرجع إلى النظم واستوائه وحسن رصفه و منه ما يرجع إلى غزارة المعاني و منه ما يرجع إلى صوتياته و تأثير الكلمات في الأسماع. هذا الجمال والإبداع أبهر فحول اللغة العربية عبر الزمن ولم يتوقف(10).

الجنس الثاني فهو الخطاب الوصفي والمتمثل في الخطاب العلمي الذي هو كباقي الخطابات قائم على التفاعل اللغوي والتواصل المتصف بالرؤية العلمية بين المتخاطبين أو أكثر معتمدا على العقل والبرهان المقنع المعتمد التجربة، لمحاولة الكشف عن الأسباب المتحكمة في الظواهر. يتميز الخطاب العلمي بلغته الوصفية، وهي لغته العلمية التي تستند إلى سجل مصطلحي خاص،مما يجعلها لغة محددة الدلالة، يكاد الدال والمدلول فيها أن يتطابقا حتى أنها لا تتجاوز مستوى الإخبار والتفسير والإيضاح. فهي صورة من صور اللغة الرمزية. فلا يظهر في الخطاب أثر للمخاطب إلاّ الفكرة أو التصور المراد نقله.(11)

يتنوع الخطاب العلمي من خطاب وصفي إلى خطاب تفسيري بحيث لا يتوقف العالم عند وصف الظواهر، وإنما يتجاوزه إلى التفسير ومنه إلى خطاب تقريري يعرض فيه قدرا من الحقائق حول موضوع بأسلوب خال من البيان والألفاظ المنمقة.

فإن كان الخطاب العلمي يهدف إلى تصحيح المفاهيم مال إلى المنطق والإقناع والأسلوب العلمي وسوق الدليل، وتسلل إلى ذلك باللغة السهلة المتخصصة الدقيقة.

يقوم الخطاب على الإيصال بين طرفين كما سبق ذكره: أحدهما الباث وثانيهما متلقي الخطاب، وبين الأول والثاني هناك رسالة هدفها الاستقرار في ذهن المتلقي، وبطبيعة الحال يختلف مضمون الرسالة من

خطاب إلى آخر. يقع التمييز، إذن، بين سائر الخطابات، منها الخطاب الأدبي الذي يتميز عن باقي الخطابات في نقاط كثيرة، يظهر ذلك عند الإشارة إلى كون النص الأدبي يشكل نصا مغلقا؛ ذلك أن منتج الخطاب، مبدعه، وخالقه من معدن آخر أفسح لذاته تعاملا مع الكتابة واللغة، لا يشبه في عمقه التعاملات السائدة والمتعارف عليها، من هنا لا يعطي النص الأدبي نفسه إلا لفئة معينة. إنه مغلق على الكل إلا للفئة المنتجة له.

ولما كانت للغة الأدب ميزتها فهي "فوق اللغة" والذي أعطاها السمو إنما الصبغة الأدبية وهي صبغة تعمد إلى الإثارة وإلى خلق الإحساس بالكائن.من خلال اللغة، تتجسد الطاقة الإبداعية لدى المبدع والتي نختزلها عادة في معنى الموهبة، أو الكفاءة الفطرية، تجد تكريسها وتتحين من خلال قراءتنا تلك التشكيلات اللغوية الأدبية التي يأتي عليها النص الأدبي في حالة جنس الخطاب الشعري، أو ربما تتجسد هذه الطاقة الإبداعية من خلال الاشتغال على التقنيات البنائية التي تشكل الإبداع السردي، وهي تقنيات لا تنفك عن اللغة ونظامها. غير أن اللغة الإبداعية هي انحراف واعٍ ومقصود عن اللغة في بعدها الوظيفي (الإستعمالي) (ما يميز الأدب عن اللغة العملية هو خاصيته البنَائية ما جعل بعض المفكرين يعاملون الشعر بوصفه الاستعمال الأدبي الجوهري للغة).

في الخطاب الأدبي ينهض المبدع بمطلب التعامل الواعي والحساس مع اللغة في تنويعاتها البنائية الجمالية (معجم اللغوي - تشكيلات صورية فنية - إيقاع... في حالة الخطاب الشعري). وهنا يحصل مبدأ التجاوز في العلاقة بين طرفي الإنتاج: المتكلم - اللغة؛ لنجد أنفسنا أمام تصور إنتاجي جديد يمثل ما أشرنا إليه بالتجاوز، ذلك أن المتكلم هنا سيتوافر على هوية جديدة؛ إذ سيصبح متكلمًا خاصًا (مبدعًا) له حساسية استثنائية على مستوى التكوين الفطري، وتصحب ذلك حساسية في التعامل مع اللغة عمومًا واللغة الإبداعية تحديدًا، وما دمنا نشير إلى اللغة الإبداعية، فذلك يعني أن الخطاب الذي يتحدد بصفة الأدبي هنا هو تكوين لغوي جمالي له خصوصيته البنائية عندما يقارَن بالخطاب اللغوي عمومًا.(12)

ووفق هذه المبادئ التي ترسم ملامح خصوصية تتعلق بالخطاب الأدبي نجد فأنفسنا أمام حالة تواصلية مؤسّسة على لقاء بين المرسل والمتلقي في إطار الخطاب الأدبي، وهو لقاء يتم فيه تبادل التأثير من خلال استثمار جمالية هذا الخطاب. فالمرسل للخطاب الأدبي (المبدع) مسكون بهاجسين: هاجس المعنى، وهاجس القول، والمعنى هنا هو حمولة الخطاب الإبداعي والذي يستجيب لمطلب الإدراك وكيف ينظر المبدع إلى شؤون الذات والآخرين والوجود. أما القول فيخضع لشرط الحرص على مثالية الإبلاغ وكيف يمكن للقول الأدبي (الخطاب) أن يبلّغ عن المعنى في صياغات فنية استثنائية.

إذا كان هنالك تعارض بين الأجناس الأدبية من نثر وشعر فإن التعارض يأخذ طابعا واضحا بين الخطاب الأدبي و لخطابات المعرفية الأخرى خصوصا منها الفلسفية.

يختلف الخطاب الفلسفي بطبيعته وإشكالاته ولغته عن خطاب التجارب الإنسانية المعاشة سياسيا واجتماعيا وأدبيا (فنيا)، فهذه الخطابات كما يقول غاستون باشلار مشحونة بالذاتية والرغائب والأحكام الخاطئة والعوائق، أما الخطاب الفلسفي فيبدأ وينتهي بقوانين العقل والواقع على اعتبار أن العقل مطابق للواقع، والمقصود بالواقع الواقع المعياري وليس الواقع القائم، فهو خطاب نقدي يعتمد التساؤل والشك بالمعطى القائم سواء كانت مذاهب أو خطابات أخرى.

وقف زكريا إبراهيم في كتابه مشكلة الفلسفة على هذه المسألة -طبيعة الخطاب الفلسفي- مقارنا إياه بالخطاب الأدبي مبينا أهم الفوارق بين الخطابين قائلا أن الشيء الرئيسي في الأدب –على العكس من الفلسفة-إنما هو "الفن"،ففي الفن ننشد المتعة لا الحقيقة ونتوخى اللذة الفنية لا التعليم العقلي"، فالعمل الفني يتميز بالخيال وتحكمه جماليات التراكيب والأساليب المنتجة للانفعالات والعواطف لدى المتلقي بينما الخطاب الفلسفي تتحكم فيه النظرة العقلية والمنطقية للقضايا. (13)

تذهب بعض الدراسات إلى أن قيام وبداية الفلسفة كانت بقطع الصلة بالأسطورة والشعر والخطاب السفسطائي، على اعتبار أن الأسطورة كانت تقدم بأسلوب شعري، الخطاب السفسطائي في الاعتماد على الجمال والبيان و الرمزي للغة قصد استمالة النفوس وهو ما يؤكده موقف أفلاطون من الشعر والأسطورة في النصوص الأولى.

كما يقف الأستاذ إبراهيم سعدي في المقارنة بين الخطاب الفلسفي والخطاب الأدبي- في مقاله عن الخطاب الروائي والفلسفي- على المستوى اللغوي من حيث الشكل والوظيفة بحيث بين أن الأديب لا يتعامل مع اللغة كمجرد أداة تبليغ بل يحرص على أن يجعلها تقدم قيمة إضافية أساسية على الخطاب بصناعة الأسلوب والبيان فيهتم بكيف القول أكثر مما يهتم بالقول .

أما الخطاب الفلسفي لم تتحصل فيه اللغة على ذلك المقام المتميز بما أنها لا تلجأ إلى تصنيع الأسلوب بل كل ما يهمها التبليغ للفكرة بصورة تجريدية بحكم أن الخطاب الفلسفي خطاب تجريدي قائم على مفاهيم يتسم بالشمولية. وإن توفر العنصر الجمالي في الخطاب الفلسفي فإنه لن يقدم قيمة إضافية بما أن ارقي ما تحققه اللغة في الفلسفة هو أن يتحقق التطابق مع المضمون المراد تبليغه.(14)

تمثل الدلالة جوهر الفلسفة فبالرغم من حيادية اللغة الفلسفية جماليا إلا أنها يمكنها أن تعيد و تكرر الخطاب الفلسفي بأكثر من كيفية حتى يقول موريس بلانشو أنه لا يهم كيف تقول الفلسفة ما تقول. فالخطاب الفلسفي وإن كان يلجأ إلى لغة نثرية مثله مثل بعض الأجناس الأدبية كالقصة إن ما يهمه القصد والمضمون لا الشكل الجمالي وإن قيل بأسلوب شعري كالجاحظ والمعري أو في صورة قصة مثلما هو عند ابن سينا في رسالة الطير أو سلامان وأبسال، أو إبن طفيل في قصة حي بن يقظان.

إلاّ أن الأستاذ إبراهيم سعدي يعتقد بغلبة المضمون على الشكل في الخطاب الفلسفي واللغة المباشرة عن الرمزية. في حين جاءت لغة هذه القصص رمزية والدلالة رمزية وليست شفافة ولا تنكشف إلا بإزالة الشكل الأدبي بالتأويل للرموز.ومنه تغلب على هذه القصص الطابع الأدبي عن الفلسفي .فحي بن يقظان أدبي أكثر منه فلسفي.

رغم هذه الاختلافات بين الخطابين فمن الصعب أن نفصل فصلا تاما بينهما لأن الواقع يبين مدى التداخل، واقع يؤكده تاريخ الفلسفة فالصلة وثيقة بين الأدب والفلسفة منذ اليونان، بين الشعر والميتافزيقا. فالسوفسطائية كانت تلجأ إلى أشعار هوميروس لتأييد أفكارها في مسألة التغير، ومعظم الفلاسفة الطبيعيون كانوا شعراء أو أنصاف الشعراء. نعرف عن أنكسيمندريس أنه صاغ كل أفكاره في قصيدة شعرية.عرف هذا المزج عند بعض المفكرين المسلمين قديما وحديثا أمثال أبي حيان التوحيدي الذي لقب بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء بمزجه بين الأدب والحكمة والتصوف والفلسفة وحديثا المرحوم الأستاذ كريبع النبهاني الفيلسوف الجزائري الذي جمع بين الشعر والفلسفة في كتاباته ومداخلاته ومحاضراته من ذلك تخصيص كتاب لفكر الفلاسفة العظام في صورة شعرية سماه "فلاسفة الإنسانية".

فكان من صورة التداخل أن قدم الأدباء أعمالا فنية في طابع فلسفي منهم بول فاليري وأندريه جيد وبروست وسيمون دي بوفوار وسارتر، فكانت تعرض المواقف والأفكار الفلسفية على شكل حوارات، مسرحيات وروايات، شعر ومقال كلها تعبر عن وضع ومعاناة الإنسان في هذا العصر: القلق، المصير، الموت و العلاقات مع الآخرين. فلا غرابة أن يلتقي الأدب بالفلسفة مادام الموضوع الرئيسي هو الإنسان.

كما بين التاريخ من جهة أخرى نزول الفلسفة إلى المجال الأدبي، كثير من الخطابات الفلسفية القديمة والحديثة تتسللها الجوانب الجمالية فعبرت عن القضايا الفلسفية في صياغات أدبية راقية، أمثلة ذلك كثيرة منها لجوء هيراقليطس إلى الأسلوب المجازي والأسلوب الشعري أكثر من أسلوب التجريد،كذلك أبدع أفلاطون بأسلوبه من خلال المحاورات التي تعتبر من الأعمال الخالدة فكرا وأدبا جمع بالأسلوب الخيالي بين القصص والأساطير والاستعارات، كذلك فعل كيركجارد في مذكراته وهيدجر في لجوئه للشعر خاصة شعر هيلدرلن وجعل منه البيت الذي يسكن فيه، أو نيتشه الذي فضل استعمال الاستعارات والرموز على التحليل العقلي في كتابه الشذرات، وغاستون باشلار الذي وصف بفيلسوف الخيال جمع بين العلم والشعر وبين الفلسفة والشعر إلى جانب كل من مشال فوكو و بارت و ليفي ستروس.

رغم هذا التداخل تبقى بعض الآراء متشددة و تقر بعدم التطابق بين الخطاب الفلسفي والخطاب الأدبي وإن اقترب الأدب من الفلسفة لن يكون إلا فلسفة من الدرجة الثاني قياسا بمعنى الفلسفة.

دور المتخيل في الخطاب الفلسفي:

إذا كان للخطاب الفلسفي خصائص تميزه عن باقي الخطابات المعرفية الأخرى التي يدخل الخيال والأسطورة في إنتاجاتها الفكرية متمثلة في كونه خطابا عقلانيا تجريديا غايته ليست الإقناع والتأثير والاستمالة بل إرساء الحقيقة، إرساء يقوم على الدليل والبرهان.

وإذا عدنا إلى تاريخ الفلسفة لا نبتدع حين نقول إن الخطاب الفلسفي الأفلاطوني خطاب عقلاني يعلي من قيمة التفكير العقلي، ويعتبر العقل الوسيلة الأضمن لبلوغ اليقين ومعرفة الحقيقة. إلا أننا نعرف وجها آخرا لهذه الفلسفة تكشف عنه أغلب الدراسات التي تهتم بأفلاطون، والذي يستثمر فيه الخيال إلى أبعد حد من أجل شرح أفكاره وإيصالها إلى مخاطبيه. فهو يستخدم منهجا فريدا من نوعه إذ يجمع بين التفكير العقلي المنطقي والحوار والجدل والأمثلة والأسطورة، ويستخدمها بمهارة. يظهر هذا التجاور للأساليب في كل المحاورات خصوصا في كتاب الجمهورية بالأخص في أسطورة الكهف، التي تهتم بإشكالية العلاقة بين الحقيقة والمظهر في عرضه للسجناء المقيدين بالأغلال والموجودين داخل الكهف فصور مشاهد الظلال والشمس المنبعثة من الخارج (15). كان اللجوء إلى هذه الصور المجازية قصد شرح فكرته التي يصعب توصيلها بصورة مباشرة أو عن طريق استدلال العقلي بمعنى الحقيقة الفلسفية مستعصية على الإدراك المباشر، فما يعتقده عامة الناس هو من قبيل الظلال، والفلاسفة وحدهم قادرون على إدراك الواقع الحقيقي،لأنهم قادرون على التحرر من قيود الحواس من أجل ممارسة التفكير العقلي (16).

كذلك فعل ديكارت الذي لم يرسم خطوات منهجه إلا بعد أن مرّ على طريق الأحلام الثلاثة حيث كانت أحلامه الثلاثة منبع إلهام و تفاؤل وحافزا أساسيا استقى منه فكرة مشروعه في تأسيس فلسفة جديدة قائمة على العقل مستوحاة من المنهج الرياضي. هذا العقل الذي ينكر أصوله الأولى. كما اعتمد ديكارت على التمثيل حين حاول تقديم تعريف لماهية الفلسفة وعلاقتها بباقي المعارف وظهر هذا التمثيل في مقدمة كتابه مبادئ الفلسفة حيث مثل الفلسفة بالشجرة تشكل الميتافيزيقا جذورها، والفيزياء جذعها وفروعها العلوم الأخرى الطب و الميكانيكا والأخلاق.(17)

أما هيجل الفيلسوف الألماني فوردت في كتابه مبادئ فلسفة الحقوق عبارة مشهورة يقدم فيها تصويرا مجازيا لطبيعة المعرفة الفلسفية والغاية المثلى منها، والعبارة تقول "إن طائر منيرفا لا يحلق في الفضاء، إلا عندما تغرب الشمس ويخيم الظلام على الوجود".(18)

والمقصود من هذه العبارة وهذا التمثيل أن الفيلسوف أشبه بالطائر لا يكثر نشاطه إلا عندما يحل الظلام، فيه تتاح فرصة التأمل والتفكير العميق فيما حصل من أحداث في النهار.

إن الخيال والتمثيل في الفلسفة لا يأخذ الدور الذي يلعبه في الخطاب الأدبي، ففي الخطاب الفلسفي يستدعى أشكال مختلفة لأداء دور تعليمي يتمثل في تيسير فهم الحقائق الفلسفية وإكسابها نوعا من الواقعية خاصة للمبتدئين تقريبها من العقول، علما أن الناس متفاوت ومتفاضلة في التصديق كما يقول ابن رشد.

خاتمة:

إن القول بتنوع الخطابات وتميز الخطاب الفلسفي عن باقي الخطابات الأخرى لا يمنع من أن يعيش الواحد والآخر جنبا إلى جنب, ولا ينقص من قدر الفلسفة حين تمزج بالفن والأدب، أشد الفلاسفة تشيعا للأدب لابد وأن يجد ثمة هوة كبيرة تفصل بين العمل الفلسفي والعمل الأدبي، باعتباره ينفر من الخيال والأسطورة، مائلا إلى العقل والتجريد .لكن الملاحظ في الدراسات المعاصرة عودة من جديد للاهتمام بإشكالية الخيال في الخطاب الفلسفي تجدد في السنوات الأخيرة وظهرت دراسات حديثة قدمت رأيا آخرا في مسألة الحقيقة الفلسفية بل أصبح يشكل بعدا من أبعاد الفكر الفلسفي ونموذجها الفيلسوف الفرنسي بول ريكور الذي يعطي فرصا لانفتاح الخطاب الفلسفي على خطابات أخرى أدبية وفنية وشعرية ما يجعل البعد الخيالي والتمثيلي محمول بصورة أو أخرى في ثنايا الخطاب الفلسفي، ولد الخطاب من رحم الفكر الأسطوري وهو يعود ويتجدد في الفكر الفلسفي المعاصر.

الهوامش:

1-أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، مادة خطب. بيروت: دار صادر، 1995، ص361.

2- إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط ، مادة خطب. طهران: المكتبة العلمية. دت.

3-محمد مفتاح، بعض خصائص الخطاب، علامات في النقد.المجلد 9.ج.2009، ص9.

4-سعيد يقطين، تحليل الخطاب الأدبي، بيروت : المركز الثقافي لعربي، 2001، ص ص11-28.

5-محمد توفيق، دلالة الألفاظ عند الأصوليين. مصر، مطبعة الأمانة، 1987، ص ص360-374.
6-بول ريكور من النص إلى الفعل، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقية، القاهرة، 2001، ص142
7-المرجع السابق، ص147-148.
8-سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي.المن-السرد-التبئير- بيروت، المركز الثقافي العربي، 1997 .ص17
9-محمد صغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي والدراسات الحديثة، الجزائر، دار الحكمة، 2001، ص ص69-73
10-محمد فاروق النبهاني، المدخل إلى علوم القرآن، حلب دار عالم القرآن، ط11462ه، ص247
11-روبرت بو جراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان القاهرة، عالم الكتب ،1998، ص415
12-جمعة محمد علوة وآخرون دراسات نظرية تطبيقية في اللغة العربية. الأردن : دت ص132
13-زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة. مصر :مكتبة مصر.دت ص 121.
14- أنظر مقال إبراهيم سعدي الخطاب الروائي والخطاب الفلسفي.
15-أنظر: محاورة الجمهورية، ترجمة: فؤاد زكريا، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967.ص ص84-168
16-أفلاطون الجمهورية .ص115
17-Descartes. R. Les principes de la philosophie. Paris la pléiade. Gallimard 1953.PP557-558.
للمزيد من الإيضاح الرجوع إلى الرسالة الموجهة لمترجمه في مقدمة كتاب ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، ص ص31-52.
18-Hegel Pincipes du doits.paris. Gallimars 1940tome1p45